محاضرة 05:

قضية الانتحال في الشعر العربي القديم

تمهيد:

تعرض الشعر الجاهلي إلى ظاهرة الانتحال، كما لم تسلم منه معظم الشعوب. وبما أن ظهور الشعر الجاهلي اقترن بالمشافهة؛ فقد كان عرضة لكثير من التزييف بفعل بعض الرواة غير الموثوق بهم. وقد ذكرت بعض الأسماء المشهورة من هذه الأسماء، من مثل حماد الراوية، وخلف الأحمر، وغيرهما..كما أن هناك إشارات حول هذه الظاهرة عند بعض أعلام النقد العربي القديم، وعلى رأسهم محمد بن سلام الجمحي. ولم يفوت المستشرقون فرصة تناول هذه القضية، بل إن بعضهم كان يرمي من ورائها إلى الطعن في مصداقية التراث الأدبي الشعري العربي.

1_ تعريف الانتحال:

الانتحال لغة من نحل الشيء: أي أعطاه أو وهبه أو خصّه به، وانتحل الشيء ادّعاه لنفسه وهو لغيره، وانتحل الشعر أو القول: ادّعاه لنفسه و ليس له, و النحل : نسبة شعر رجل إلى رجل آخر. و ورد في لسان العرب النُّحل بالضم: إعطاؤك الإنسان شيئا بلا استعاضةٍ، وعمَّ به بعضهم جميع أنواع العطاء، وقيل: هو الشيء المُعطى، وقد أنحله مالاً، ونحلَه إيّاه. ونَحلْتُه أي أعطَيتُه، و الاسم: النُّحلُ: أن تُعطيَ شيئا بلا استعواض، وانتحل كذا إذا تعاطاه وادّعاه، وقال قومٌ: انتحَلَه: إذا ادّعاه محقًّا، وتنحّله: إذا ادّعاه مُبطلا. وقد عالج قضية الانتحال العديد من النقاد قديما وحديثا، وكان ابن سلام الجمّحي من الأوائل الذين توقفوا عند هذه القضية في كتابه " طبقات فحول الشعراء".

أ- ابن سلام الجمحي:

تناول الجمحي فكرة الشعر الموضوع عندما أشار إلى الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ولكنه ليس لهم، بقوله:" لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أنْ يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في الأشعار التي قيلت وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولّدون ".

ويسوق ابن سلام رواية يثبت بها صفة انتحال الشعر، قائلا: " وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الراوية وكان غير موثوق به كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد

في الأشعار أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة فقال ما أطرفتني شيئا فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى فقال ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به وأنا أروي للحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس وأخبرنا ابن سلام قال سمعت يونس يقول العجب لمن يأخذ عن حماد وكان يكذب ويلحن ويكسر." ويرجع ابن سلاّم الانتحال إلى عاملين:

1_ العصبية القبلية في العصر الإسلامي: إذ حرصت بعض القبائل على أن تضيف لسجلّها التاريخي ضروبا من المجد، ولأنّ الكثير من الشعر الجاهلي قد ضاع فقد عمدت القبائل التي استقلّت أشعارها إلى وضع الشعر على ألسنة شعرائها.

2_ الرواة: فلم يقتصر دور بعض الرواة على وضع الشعر ونسبته إلى غير قائله، بل تجاوز ذلك إلى التزييف و الخلط، من ذلك ما كان يفعله حمّاد الراوية الذي كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار، و إزاء هذه المشكلة بيّن ابن سلاّم أنّ ثمة حكمين تُقبل حكومتهما في صحة الشعر ووضعه، وهما: أهل البادية، وعنهم ينبغي أن يؤخذ الشعر، و العلماء الذين تعرض عليهم الأشعار فيميّزون صحيحها من زائفها.

ب- **المستشرقون:**

يذكر شوقي ضيف في كتابه عن تاريخ الأدب العربي، ممثلا في العصر الجاهلي اهتمام بعض المستشرقين من أمثال موير وباسيه وبروكلمان بالرتاث الشعري العربي، وذلك من خلال إعطاء جملة من الآراء والأفكار حول نشأته، وتطوره/ ومختلف القضايا المحيطة به، ومنها إشكالية (الانتحال)؛ وكان مرجيليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتب فيها مقالا مفصلا نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يوليه سنة 1952 جعل عنوانه كما مر بنا (أصول الشعر العربي: The origins of arabic poetry) ونراه يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثا عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه، وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته.". ويواصل مرجيليوت تقديم حججه في إثبات الانتحال، بحديثه عن الكتابة، وأنها لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة، ثم يعود فينفي أن تكون الرواية والمشافهة هي التي حفظته. ويؤكد في سياق آخر أنه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم.

وأن القرآن هو الذي عرف العرب ببعض أسئلة الوجود، والدنيا والآخرة، ويقول إن هذا الشعر " لا يمثل الجاهليين ولا من تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله."

ولا يخفى على أحد كثرة اللهجات العربية، وتعددها في العصر الجاهلي. ولكن لا أحد ينفي أن اللهجة المهيمنة آنذاك هي لهجة قريش التي استطاعت أن تتحول إلى لهجة سيدة، يجتهد الشعراء والخطباء في النسج على منوالها، ولكن مرجيلوث يصر على موقفه، " ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثّل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب. "

ج- العرب المحدثون:

ج-1- مصطفى صادق الرافعي:

لم ينقض البحث في كثير من الإشكاليات التي أثيرت قديما بعد تدوين التراث العربي، بل إن كثيرا منها قوي البحث فيه في العصر الحديث، نتيجة اكتساب منهجية البحث ما حدا ببعض الدارسين اللجوء إلى إعادة القراءة، والغربلة، والتمحيص. ولم تكن النتائج المتوصل إليها متوافقة دوما؛ فقد كان كثير منها متناقض، وهو ما أدى إلى اشتعال حروب قلمية أنشأت العديد من المقالات، والكتب؛ تراوحت بين الدفاع والإشادة، وبين الإنكار والإدانة. وقد وجدت بعض الدراسات التي حاولت العمل بمبدإ الموضوعية العلمية الذي يتحرى الحقيقة بعيدا عن الذاتية. ونجد أفكار مصطفى صادق الرافعي تصب في هذا المنحى. فلقد حاول دراسة ظاهرة الانتحال في الشعر العربي القديم من موضع حيثيات الرواية، وأصناف الرواة، ومعالم الثقافة العربية القديمة المساهمة في صناعة الذوق الأدبي من خلال ملكة رواية الأخبار، المشافهة." وقد كان العرب ينشد بعضهم شعر بعض، ويجري كل منهم في النطق على طبعه ومقتضى فطرته اللغوية، فمن ثم يقع الاختلاف الصرفي واللغوي الذي نراه في بعض الروايات، وقد يغير العربي فيما يتمثله من الشعر كلمة بأخرى يراها أليق بموضعها وأثبت في معناها، أو تكون الكلمة قد أصابت هوى في نفسه، لأنهم إنما يتمثلون الشعر لغير الغرض اللغوي الذي قامت به الرواية، وذلك كقول أبي ذؤيب الهذلي:

دعاني إليه القلب، إني لأمره مطيع، فما أدري أرُشْدُ طلابُها

وهي رواية أبي عمرو بن العلاء، ولكن الأصمعي رواه على نقيض هذا المعنى فقال (عصاني إليها القلب...) البيت. وظاهر أن هذا التناقض في الرواية لا يكون من الشاعر، وإنما هو تفاوت في الاستحسان لا غير."

وقد لجأ الرافعي إلى بعض السلوكات التي تسهم في تحريف الشعر المنقول من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر. فتأتي الرواية مختلفة من راو إلى آخر " ومن أسباب الاختلاف، أن الشعراء في الصدر الأول كانوا يعتمدون على الحفظ، ولكنهم لا يثبتون من شعرهم كل لفظ بعينه، بل ربما أنشد الرجل منهم أبياتا فتروى عنه، ثم تأتي الأيام فينسى بعض ألفاظها، فلا يكون إلا أن يضع غيرها ثم ينشد الأبيات على وجه آخر، فتروى أيضا، ثم تجتمع الروايتان

في شعره أو الروايات المختلفة، ولهذا قال ذو الرمة لعيسى بن عمر الثقفي: اكتب شعري، فالكتاب أحب إليّ من الحفظ؛ لأن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام."

ولم يكن التحري في طلب الحقيقة ذا شأن عند بعض الرواة؛ فهناك بعض الإغراق، والمبالغة في رواية الأحداث، والمغامرات التي كانوا يريدونها أن تتماشى مع طبيعة الحياة الصحراوية، والفيافي، والبيادي، المليئة بالوحوش، والكواسر، والمخاطر. فأخذوا يتفننون في سرد الأحداث، والبطولات. وربما أصبح الأمر مغايرا عندما دخلت الأفكار الشعوبية على الخط؛ فقد عملوا بطريقة عكسية مؤداها إسقاط المناقب، والبطولة عن الإنسان العربي."والرواة إنما قلدوا العرب في صنعة الأخبار والتزيد فيها، كما قلدوهم في وضع الشعر؛ لأن العرب كانوا يكذبون بعضهم على بعض في المثالب، ويتزيدون في المناقب، وكانوا يتناقلون أخبارا من تاريخ الأوائل والبائدة عمن خالطوهم من الأمم، على ما في أكثرها من الوهن والكذب، وهي لا تدور فيهم حتى يكون قد داخلها الكثير من مثل ذلك، وشبه الشيء منجذب إليه."

ج-2- طه حسين:

أثارت الدراسة التي أقامها طه حسين حول الشعر الجاهلي سنة 1926 والموسومة بـ: في الشعر الجاهلي. هزة عنيفة في الذهنية العربية التي ألفت منطق التصديق، خاصة إذا تعلق الأمر بالتراث العربي والإسلامي. ولكن طه حسين فتح بابا واسعا حول الجدل في صحة ما تناقله الرواة العرب والمسلمين في مجال تدوين النصوص الشعرية بوجه خاص. وقد اعتمد هذا الناقد منهج الشك الديكارتي، الذي يؤمن بالشك الذي يوصل إلى اليقين. وقد أقر جملة من الاعتراضات على صدقية نسب الشعر الجاهلي إلى أصحابه. ويشير إلى أن هذه القضية ليست وقفا على أمة العرب وحدها، وإنما لم تسلم منها أمم الحضارات السابقة على غرار اليونان والرومان. فـ" لم تكن الأمة العربية أول أمة أنتحل فيها الشعر انتحالا وحمل على قدمائها كذبا وزورا، وإنما أنتحل الشعر في الأمة اليونانية والرومانية من قبل وحمل على القدماء من شعرائهما، وانخدع به الناس وآمنوا به، ونشأت عن هذا الانخداع سنة أدبية توارثها الناس مطمئنين إليها، حتى كان العصر الحديث وحتى استطاع النقاد من أصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة أن يردوا الأشياء إلى أصولها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا."

لقد كانت العصبية في العصر الجاهلي هي الفيصل في صنع العلاقات بين القبائل، ولما جاء الرسول – ص – دعا إلى محو تلك العصبية، وبناء المجتمع العربي الإسلامي على روابط الأخوة والدين. وكانت دعوته تصل إلى أقاصي القبائل العربية فتدخل في دين الله أفواجا. وحين وصل الأمر إلى بني أمية دبت العصبية من جديد نتيجة تفضيل العرق العربي على باقي الأعراق الأخرى، وكان مدعاة لظهور فكرة التعصب، ومحاولة الاستئثار بالمناقب الحميدة، ونزعها عن الآخر. " وإذا كان هذا تأثير العصبية في الحياة السياسية وقد رأيت طرفا يسيرا

من تأثيرها في الشعر والشعراء، فأنت تستطيع أن تتصور هذه القبائل العربية في الجهاد السياسي العنيف، تحرص كل واحدة منها على أن يكون قديمها في الجاهلية خير قديم، وعلى أن يكون مجدها في الجاهلية رفيعا مؤثلا بعيد العهد. وقد أرادت الظروف أن يضيع الشعر الجاهلي، لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد وإنما كانت ترويه حفظا، فلما كان ما كان في الإسلام من حروب الردة ثم الفتوح ثم الفتن، قتل من الرواة والحفاظ خلق كثير. ثم اطمأنت العرب في الأمصار أيام بني أمية وراجعت شعرها، فإذا أكثره قد ضاع وإذا أقله قد بقي." وهذا ما يثبت – حسب طه حسين – دور السياسة في انتحال الشعر.

ويعتمد عاملا آخر، هو: الدين ودوره في انتحال الشعر. إذ يرى طه حسين " أن الشعر الذي يسمى جاهليا مقسم بين السياسة والدين، ذهبت هذه بشطر منه وذهب هذا بالشطر الآخر. ولكن أسباب الانتحال ليست مقصورة على السياسة والدين بل هي تتجاوزهما إلى أشياء أخرى."

وقد استعان الكاتب في إثباته جملة من الأمور تتعلق في معظمها بالعصبيات والعرقيات، والدسائس التي قامت بعض العصب المذهبية والدينية من العب، ومن غير العرب. ويضيف قضية القصص وانتحال الشعر. والقصص فن أدبي " وهذا الفن الأدبي تناول الحياة العربية والإسلامية كلها من ناحية خيالية لم يقدرها الذين درسوا تاريخ الآداب العربية قدرها، لا أكاد أستثني منهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء." وتجاوبا مع ازدهار هذا الفن، فقد وجد مناخا مواتيا للانتشار والقبول من قبل عامة الناس. " وليس من شك في أن العناية بدرس هذا الفن ستنتهي إلى مثل ما انتهت إليه العناية بدرس الشعر من أن الأحزاب السياسية على اختلافها كانت تصطنع القصاص ينشرون لها الدعوة في طبقات الشعب على اختلافها، كما كانت تصطنع الشعراء يناضلون عنها ويذودون عن آرائها وزعمائها. ونحن نعرف من سيرة أبي إسحاق أنه كان هاشمي النزعة والهوى، وأنه لقي في ذلك عناء من الأمويين في آخر عهدهم بالسلطان، وأنه ظفر بحسن المنزلة عند العباسيين في أول عهدهم بالملك."

ويؤكد من جهة أخرى دور الشعوبية في انتحال الشعر. قائلا:" وأنا أستطيع أن أمضي في تفصيل هذه الآثار المختلفة التي تركتها الشعوبية في الأدب العربي وفي الانتحال بنوع خاص، ولكني لم أكتب هذا الكتاب إلا لألم إلماما بكل هذه الأسباب التي تحمل على الشك في قيمة ما يضاف إلى الجاهليين من الشعر"

وينهي أسباب الانتحال بالتعرض إلى بعض الرواة الذين لم يكن لهم حظ من الدين، والاستقامة في الأخلاق، يذكر بعضهم منهم حماد الراوية، وخلف الأحمر. و" كان حماد الراوية زعيم أهل الكوفة في الرواية والحفظ. وكان خلف الأحمر زعيم أهل البصرة في الرواية والحفظ أيضا. وكان كلا الرجلين مسرفا على نفسه ليس له حظ من دين ولا خلق ولا احتشام ولا وقار.

كان كلا الرجلين سكيرا فاسقا مستهترا بالخمر والفسق. وكان كلا الرجلين صاحب شك ودعابة ومجون."